«أبو بكر الصديق»

ـ رضي الله عنه ـ

« من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى أبي بكر»

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

نَشَأ أبو بكر الصِّديق في مكةَ عَزيزاً كَريماً، وكان رَاجحَ العَقْلِ مُتَّزِن النَّفسِ دائماً، فلَم يَقْبَل بخُرافات الجاهلية، ولم يَسْجد لصنمٍ قطٍّ، ولَم يشرب الخَمر مُطْلقَاً، سُئِلَ يوماً: هل شَربتَ الخَمرَ في الجاهليةِ ياأبابكر؟

فكان رَدُّه: أعوذُ بالله!

قيل له: ولمَ؟!

فقال: كُنتُ أصونُ عِرْضي، وأحفَظُ مُرُوءتي، فإن مَنْ شَرِبَ الخَمر كان مُضيِّعاً في مُروءته، وعِرْضه.

وكان أبو بكر الصدِّيق عَفيفَ النَّفَس، عالي الهمَّة. وكانت أخْلاقُه سَمْحةً وسيرتُه كَريمةً. وكان تاجراً أَميناً وبائعاً نَزيهاً. يبيعُ الثِّيابَ ويكسبُ كَثيراً. وكان يُنْفقُ من ماله الوفير على الفُقراء والمساكين. هذا فضلاً عن أنه كان يُقْري الضَّيف، ولأنه صادقٌ أمينٌ فكان يتولَّى أمْر الدِّيات في الجاهليةِ، وينوبُ فيها عن قُريشٍ، وبهذا

كسَبَ أبو بكر ثقةَ العربِ ، فكانوا يحترمونَ رأيهُ . كان أبوبكرٍ الصدِّيق صديقاً لمحمد .

ـ ﷺ ـ قبل الإسلام ، فقد خَرجا معاً فى تجارات لقُريش إلى الشَّام ، ولكَمَ تحدَّثا سَوياً فى شَتَّى الأحاديث والأخبار . وعندما نزل الوحىُ على النَّبى وأمرهُ اللهُ أن ينذرَ عَشيرتهُ الأقربينَ ، وراح النَّبى يدعو إلى الإسلام ، هُنالك فَزعتْ قريش ، وأسْرَعَ النَّاسُ إلى أبى بكر يُخبرونه بما أصَابَ صديقهُ محمداً من جنونٍ ، وأنه يَسُبُّ آلهتهم ويَسْخر منها ويَزْعُم أنه نبىٌّ .

فانطلقَ أبوبكر إلى صاحبه محمداً وتحدَّثَ معه ، وعَرضَ عليه النبى الإسلامَ فآمنَ فى الحال ، وكانَ بذلكَ أوَّل المؤمنين بدعوة الإسلامِ من الرِّجال .

* * *

ظَلَّ إيمانُ أبى بكر بدعوة محمد سرَّاً ، حتى استأذن أبو بكر النبى فى الخُروج إلى القوم عندَ الكعبَة والجَهْرَ بالدَّعوَة وليحدثْ مَا يحدثْ .

ولم يوافق النبى على ذلك أولاً ، ولكن أبابكر ظلَّ يُلحُّ فى طلبه حتى وافقَ رسولُ الله ، فخرجَ أبوبكر مع بعض أصحابه من المؤمنينَ الأولينَ فوجدوا شيوخَ قُريش جالسينَ يتحدثون بجوار الكعبَة ، فوقفَ أبوبكر فيهم خطيباً وراحَ يدعوهُم إلى الإيمان بالله وعبادته وَحدْه لا شريكَ لهُ وكانَ النبىّ جالساً يستمعُ إلى أبى بكرٍ فى إعجابٍ وإشفاقٍ .

كانَ ذلكَ تحديّاً واضحاً لشيوخِ قُريشٍ وأشرافِها، ولم يكَد أبوبكر يُنْهى كلامَهُ حتى قامَ إليه القَوْمُ ونزلوا عليه وعلى المُسلمين الذين معهُ ضَرْباً ولَكْماً، وخَلَعَ عُتْبةُ بن ربيعة نَعْله ونَزل به على وَجهِ أبى بكرٍ ضَرْباً وصَفْعاً حتى سالتْ منه الدِّماءُ وغابَ عن الوَعى .

وأقْبلتْ بنو تميمٍ ودفعوا المُشركينَ عنه، وحَملوهُ إلى دارِه وهُم يَظنون أنه ماتَ !

وظلَّ أبوبكر فاقدَ الوَعى مُدةً، وكان مَنْ حَولَهُ فى زُعْرٍ وخَوْف، وعندماأفاقَ من الغَيْبوبةِ قليلاً كان أولُ كلام نطقَ به :

ـ ما فعلَ رسولُ الله؟

فقيلَ له : إن رسولَ الله سَالمٌ فى دار ابن الأرْقم .

وعندما قدَّمتْ له أمُّه قَدَحاً فيه لَبن قالَ:

-والله لا أذوقُ طَعاماً ولا شَرَاباً حتى أتى رسولَ الله .

وخرجَ أبوبكر فى جُنْحِ اللَّيل يتكئُ بذراعيه على أمه ، وفاطمة بنت الخَطَّاب ـ وكانتْ قد أسْلمتْ ـ حتى وَصَلُوا إلى دارِ الأَرْقمِ ، فقامَ إليه النبىُّ مُسْتبشراً ومُرحِّباً، وسألهُ:

ـ كيف حالكَ يا أبا بكر؟

فردَّ أبوبكر وقدْ ذهبَ عنه القَلقُ:

-بأبى أنتَ وأمى يا رسولَ الله، ليس بى إلا مانالَ الفاسقُ من وَجْهى ، فدعاالنبى له بالخير، وقال أبو بكر للنبى :

ـ يا رسولَ الله، هذه أمي، بَرَّةٌ بولدها، وأنتَ مُباركٌ فادْعُها إلى الله وادعُ اللهَ لها عَسى أن يُنقذها بكَ من النَّار.

فدعاها النبيُّ إلى الإسلام ودعا لها بالخير والهداية، فقالتْ:

ـ أشهدُ أن لاإلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً رسولُ الله.

وكان أبوبكرٍ أشَدَّ فرحاً بإسلام أمه، وسَلامة رسول الله من الأذى.

* * *

كان لإسلام أبي بكر أثرٌ عظيمٌ على الدَّعوة الجديدة، فقد صَحبَ النَّبيَ ولازمهُ في حياته، وكان يَدْعو أصحابهُ وكرامَ قومه إلى الإسلام، فأسلَم على يديه عددٌ كبيرٌ من كرام الصَّحابة، منهم عثمانُ بن عفان، وسعدُ بن أبي وقاص، وطَلْحةُ بن عُبيد الله، والزُّبيرُ بن العَوَّام، وعَبد الرحمن بن عَوْف، وكان لحُسن أخلاق أبي بكر، ورجَاحة عقله ومكانته في قَوْمه أكْبَر الأثر في إسلام هؤلاء الصَّفوة من السَّابقينَ الأولينَ منَ المُسلمينَ، الذين انتشرَ الإسلامُ بهم.

وعندما اشْتَدَّ إيذاءُ المُشركينَ لمواليهم وعَبيدهم من المُسلمين، كان أبوبكر يَشْتري من ماله هؤلاء المُعذبين المُؤمنينَ، ويُحررهم من العُبودية ويُنْقذهُم من العَذاب ويُخلصهم من أيْدي سَادتهم القُساة الظَّالمينَ، ومن هؤلاء المَوالي بلالُ ابن رَباحٍ (مُؤذنُ الرَّسول)، وعَامرُ بن فُهَيْرة.

واشْتَّد إيذاءُ الْمشركين للمُسلمين عامةً ، وأذن النَّبيُ لأصحابه بالهجرة إلى الحَبشة ، وأراد أبو بكر الهجرةَ إلى الحبشة مع الْمهاجرين ، فاستأذنَ رسولَ الله ، فأذن له ، وركب راحلتُه وانطلق بها ، وفى الطَّريق لقيهُ رجلٌ يُدعى ابنُ الدَّغنة فعرضَ على أبى بكر أن يعودَ إلى مكةَ فى جواره وحمايته ، فعاد أبوبكر الصدِّيق إلى مكةَ ولكنه مالبثَ أن رَدَّ على الرَّجل جوارَهْ وآثرجوارَ اللهِ ، وكان يتحمَّلُ مع الْمسلمينَ مُضايقات وأذى الْمشركينَ .

كانتْ دَعوةُ الإسلامِ تَنْتشرُ فى مكةَ على الرغمِ من عناد الْمشركينَ ، وبدأتْ الدَّعوةُ تنتشرُ فى المَدينة ، وهَاجَر إليها بعضُ الصَّحابة ، وراحَ إبوبكرٍ يستأذنُ النبِّى فى الهجرة إلى المدينَة . فقال له النبى ـ ﷺ ـ :

ـ لا تعجل لعل الله يجعلَ لكَ صَاحباً .

فسكتَ أبوبكر وهو يطمعُ فى صُحْبَة رسول الله ، وأعدَّ راحلتينَ لهذاالأمر ، حتى جاءَ الأمرُ من الله للنبِّى بالهْجرةَ إلى المدينة فى الليلة التى أعدَّ المشركونَ أنفسهم فيها لقتل النبى والقضاء على دعوته .

وفى ظُهْر هذا اليوم خرجَ النَبَىُ ـ ﷺ ـ من داره مُتجهاً إلى دار صديقه أبى بكر ، فاستقبلُه أبوبكرٍ بتْرحابٍ شديدٍ ، وأكرمَ وفادتُه ، وبعد أن إطمأن النبىُّ قال لأبى يكر :

ـ اَخْرجَ عَنِّى من عنْدكَ .

فأدركَ أبوبكر أن هُناكَ أمراً جليلاً فقالَ للنبى :

ـ يا رسولَ اللّه ، إنما هُما ابنتاى ، وماذَاكَ الأمرَ فداكَ أبى وأمى ؟

فقال النبىُ : إنَ اللهَ قد أذنَ لى فى الهِجرة إلى المَدينة .

ـ الصُّحبةُ يا رسولَ الله !

ـ الصُّحبةُ !

وبكى أبوبكر فَرَحاً ، وقالَ :

ـ يانَبَّى الله ، هاتان راحلتان كُنْتُ أعْدَدتُهما لهذا اليوم .

وعندما جَاء المساءُ ، خَرجَ النبى ـ ﷺ ـ وصَاحبهُ خُفيةً من فتحة فى جدار البَيتَ ، وانطلقا براحلتيهما فى الصَّحراء حتى وَصَلا إلى غار ثَوْر .

وَدَخَل إبوبكر قبلَ النَّبىُ ليُنظفهُ ويُزيلُ ما به من سُوء . فوجدَ أبوبكر فى الغار شُقوقاً وثُقُوباً ، فَشَقَ إزارهُ وسَدَّها به ، ما عَدا ثُقبانَ سَدَّهما بقدمه وهو جَالسُ خَشْيةَ أن يكونَ بهما ما يُؤْذى النبَّى .

ونامَ النَّبىُ ـ ﷺ ـ فى حجْر صديقه أبى بكر ، وتَخْرجُ حيةٌ من أحد الثُّقبين وتلدغُ قَدَم أبى بكر ، فيبكى من الألم ، وتَسْقطُ دموعُهُ على وَجه النَّبى فيستقيظُ ويسألُ صاحبَهُ :

مالكَ يا أبابكر ؟

ـ لُدغتُ . فداكَ أبى وأُمى يارسولَ الله .

ويُداوى النَّبىُ مكانَ اللَّدغة فيبرأ أبوبكر ، وتطيبُ نفسهُ ، ويدعو النبىَ لأبى بكر بالمَنزلة العَالية يومَ القيامة .

* * *

ويقيمُ أبوبكر مع النبي ـ ﷺ ـ في الغار ثلاثةَ أيامٍ، كانت من أروع لحظات الإيمان والتضحيةْ والفداء.

وتأتي قريش مسرعةً للبحث عن النبي وصاحبه، ويقفُ المشركونَ أمامَ باب الغار حيثُ انتهتْ بهم آثارُ الأقدام.

ويسمعُ أبوبكر حوارَ الرجال الواقفينَ أمامَ باب الغار، فيشعرُ بالرعب والخوف على حياة النبي، ويهمسُ للنبي في قلق:

ـ يا رسولَ الله. لو نظرَ أحدُهم تحتَ قدميه لرآنا.

فيرد النبي ـ ﷺ ـ مهدئاً ومطمئناً:

ـ يا أبابكر، ما ظنُّكَ باثنين اللهُ ثالثهما. لاتحزنْ إن اللهَ معنا.

ويُنزل اللهُ تعالى السكينةَ على قلب أبي بكر الصديق، فتهدأ نفسُه، ويطمئنُ قلبُه ويُعمي الله أبصار المشركين عن النبي وأبي بكر، ويرى المشركون الغار قد سُدَّتْ فتحتهُ بخيوط العنكبوت، ورقدتْ على جانبيه حمامتان آمنتان. فرجعوا خائبينَ مدحورين.

وينزلُ الوحيُ على النبي ـ ﷺ ـ مُعلياً من شأن أبي بكر الصديق، يقول تعالى ﴿ **ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** ﴾ [التوبة: ٤٠].

وفي المدينة تُقامُ دولةُ الإسلام لأول مرة في التاريخ، ويواجهُ النبيُ أعداءَ الإسلامِ المشركينَ في غزواتٍ ومعاركَ كثيرة، يخوضها

المسلمون مع النبى ويكون أبوبكر الصديق فى مُقدمة المسلمين فى خوض هذه الغزوات ، غزوة بدرٍ وأُحدٍ ، والأحزابِ ، ويكون رفيق النبىَ فى فتح مكة .

وتمضى الأعوامُ والإسلامُ ينتشرُ فى مكةَ والمدينة وحولهما .

وفى العام التاسع من الهجرة يُرسلُ النبى أبابكرٍ ليحُجَ بالناسِ ، ثم يَحُجَ النبىّ فى العام التالى حُجَةَ الوداعِ .

وتمضى الأيامُ ويشتد المرض ذات يوم بالنبى ـ ﷺ ـ ، ويحين وقت الصلاة ، ويأتى بلالَ إلى النبى فيقولُ النبىُ له :

ـ مُرُوا أبابكر فليصلِّى بالناسِ .

ويخرجُ بلالُ مؤذن النبى إلى المسجدِ فلا يجدُ أبابكرٍ فقال لعمر ابن الخطاب :

ـ قُمْ فَصَلِّ بالناسِ .

وعندما كَبَّر عُمر فى الصلاَة ، وسَمعهُ النَّبىُ ـ كان بيتُ النبى بجوارِ المسجد ـ غَضبَ وقال لمن حَولهُ :

ـ فَأين أَبوبكرٍ . . . يأبى اللهُ ذلكَ والمُسلمونَ ، يأبى الله ذلك والمُسلمون !

وعندما وَصل أبوبكرٍ الصِّديق صلَّى بالناس .

وتَحسنتْ من بعدها صحَّةُ النبى ـ ﷺ ـ ، حتى جاءَ يومٌ ، كان أبوبكرٍ جالساً فى داره بالسُّنحِ (وهى منازل تبعد ميل عن المسجد

النبوى). وجاءه نبأ وفاةَ النبى ، فأسرع إلى بيت عائشة ابنته ، زوجُ رسول الله فوجد النبى مُسَجَّى فى ناحية من الحُجرة وعليه غطاءٌ يحجبُ كُلَّ جسده ، فكشفَ الغطاءَ عن وجهه وقبَّلهُ قُبلةَ الوَداع ، وانحدرتْ من عَينه دَمعةٌ وهو يقولُ :

ـ أبى أنتَ وأُمى ، أما المَوْتةُ التى كَتَبَ الله عليكَ فقد ذُقْتها ثم لن يُصيبكَ بَعدها موتةً أبداً .

ثم وضَعَ الغطاءَ على وجهه وخرجَ إلى الطريق ، فوجدَ المُسلمينَ خارجَ المسجد مُجْتمعين وعُمر بن الخطاب يَهْتفُ فيهم :

ـ أيها النَّاسُ ، إن رسولَ الله لم يَمُتْ ولكنهُ ذَهَبَ إلى ربه كما ذَهَبَ مُوسى بن عمران .

فقال أبوبكر : على رِسْلكَ يا عُمر .

ثم قام فى النَّاس خطيباً لكى يُهدئ اضطرابَ النَّاس ، فقال بعدأن حمد الله وأثنى عليه :

ـ أيها النَّاسُ . من كانَ يعبدُ محمداً فإن محمداً قد ماتَ ، ومن كان يعبدُ اللهَ فإن الله حَىٌّ لا يموتُ ، ثم تلاَ قولَ الله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

فانتبهَ النَّاسُ إلى حقيقة النَّبأ الحزين، وانصرفوا من أمام المسجد وعُيونُهم دامعةٌ وقلوبُهم مُنْفطرةٌ.

* * *

وبايعَ المُسلمونَ أبابكر الصديق بالخلافة. وكان أولُ عملٍ قامَ به أبوبكر بعد مبايعته بالخلافة هو تَسْييرُ جيش أسامةُ بن زيد، الذى كان النبىُّ ـ ﷺ ـ قد جَهَّزه قبل مَوْته، وذلكَ لغزو أطراف بلاد الرُّوم.

وخرجَ أبوبكر يُشيِّعُ جيشَ المسلمينَ بنفسه، وأسامةُ القائدُ راكبٌ دابتهُ. ثم بدا لأبى بكر الصديق أن يُوقف تيار الرِّدة الذى انفجر بعد موت النبى ـ ﷺ ـ، وذلك بمحاربة المرتدينَ ومانعى الزَّكاة.

وجمع أبوبكر قُوَّاد المسلمين، واختارَ منهم أحدَ عَشرَ قائداً، أرسل كُلاً منهم بجيشٍ إلى بلاد المرتدين للقضاء على الخارجينَ عن تعاليم الإسلام. وانتصرَ المسلمون فى تلك الحُروبَ، ورَسَّخَ هذا النَّصرُ أركانَ الإسلام فى أرض الجزيرة العربية.

ثم رأى أبو بكر أن يُحقق بشارة النبى ـ ﷺ ـ بفتح الممالك، مملكة الرُّوم ومملكة الفُرس، فجمعَ أربعينَ ألف مقاتل من المُسلمينَ الذين لم يدخل قُلوبهم الرِّدَةُ وأرسلهم إلى الشَّام بأموالهم وأهليهم، وأسنَد القيادة العامة لهذه الجيوش إلى أبى عُبيدة بن الجراح. وتمَّ النصرُ للمسلمين فى مواقع كثيرة، كان أهمها واقعةُ اليرموك، وانتشرَ الإسلامُ بعدها فى أرجاء الأرض.

ظَلَّ أبوبكر خليفةً للمُسلمينَ مدة عامين وثلاثة أشْهر وعَشر ليال، رَسَّخ خلالها دولة الإسلام وأقام خلالها حُكُومةً مُسلمةً عَصريةً، وبرغم ذلك كان زاهداً ورعاً يعيشُ على الكَفاف، وبرغم أنه كان تاجراً غنياً ثرياً في بداية عهده بالإسلام، فقد كانَ رأسُ ماله أربعينَ ألفَ درهماً عندما أسلمَ أنفقها في سبيل الله، وكان يعيشُ وأسرتُه على راتبه من بيت مال المسلمينَ.

وتمضي الأيامُ من إيمان إلى إيمان، ومن رفْعة للإسلام إلى رفعة، حتى يحين الأجلُ، فيمرضَ أبوبكر الصدِّيقَ وتشتدُ عليه الحُمى، ويُفارقُ الحياةَ في يوم الإثنين ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ من الهجرة. ويصلي عمر وصحابةُ رسول الله في مسجد النبي ويُدفنُ بجوار صاحبه وصديقه النبي ـ ﷺ ـ. رضي الله عن أبي بكر الصدِّيق، أولَ من أسلم، وأول من جمعَ القرآنَ، وأول من سَمَّاهُ مُصْحفاً، وأول من سُمي خليفةً، وأول من ولي الخلافةَ وأبوه حيٌّ، وأول خليفة فرضت له رعيته العطاءَ (راتبه)، وأول من اتخذ بيت المال.

« رضي الله تعالى عنه »